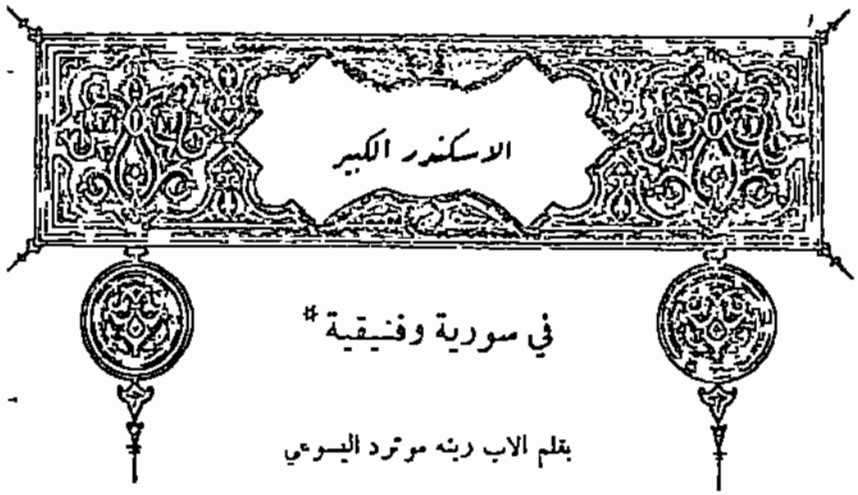

في سورية وفنيقية *

بقلم الاب ربله موتزد اليسوعي

تمهيد

في شهر تشرين الثاني من السنة ٣٣٣ قبل المسيح ، دخل الاسكندر المقدوني بلاد سورية ، انتصر في معركة ايسوس ، شمالي الاسكندرونة ، فمهدت امامه الطريق الى داخلية بلاد الشام والى الشاطئ الفنيقي . ومن فنيقية مشى على مصر . ومن مصر عاد سائرًا الى ما بين النهرين حيث انتصر انتصارًا باهرًا في معركة أربل ، فاصبح مملكة فارس تحت مطلق تصرفه. وبعد ان اخضع بطائح ايران ، صعد نحو الشمال حتى منطقة بحر قزبين . وقد بدأ اكتساح آسية برمتها حتى وصل الى قلب بلاد الهند ، الى اقصى حدود المناطق المعروفة اليوم بمناطق البنجاب وكشمير . هناك توقفت جيوشه فرفضت ان تتبعه في التقدم على الگانج . عند ذلك عاد الاسكندر منحدرًا ومجرى نهر الاندوس ، ثم صعد في مقدمة جيوشه على شاطئ خليج فارس الشمالي ، بينما كان اسطول نيارك يصعد في مياه الخليج موازيًا لسير الجيش . حتى وصل الفاتح العظيم الى مدينة بابل ، فمات فيها في ١٣ حزيران سنة ٣٢٣ ، وهو يعدّ المعدّات لاكتساح جزيرة العرب.

وغير خافٍ على احد ان هذه العشر السنوات المملوءة بالغزوات والمعارك

---

* هي اول المحاضرات الملقاة في « معهد الآداب الشرقية » ، في فرع « تاريخ سورية على عهد اليونان والرومان . »

والفتوح تؤلف حلقةً مهمّةً ، وحقبةً حاسمة في تاريخ العصور القديمة ، ولم يكن الشرق والغرب قد تعارفا هذه المعرفة ، ولا أثّر احدهما في الآخر الآثار الواضحة التي حصلت على عهد الاسكندر . ولقد كان لسورية وفنيقية نصيبها في هذا التأثير المتبادل من حيث السياسة والثقافة ، كما كان لهما نصيبهما كذلك في المعارك والاكتساحات . واني اودّ ان اشير باختصار الى حالة هذه المناطق اذ دخل الفاتح الكبير آسية ، وان ألمّ بوصف معاركه على الارض التي نطأها اليوم ، تمهيدًا لما ساحاوله من تقدير التأثير الذي احدثه مُلكه في الشرق الادنى . وقد ظهر مؤخرًا كتابان عن الاسكندر الكبير اتانا صاحباهما بمعلومات مفيدة في الموضوع[1] .

فنيقية وسورية على عهد السيادة الفارسية

كانت بلاد فنيقية وسورية ، عندما مشى عليها الاسكندر ، تؤلف قسماً من المملكة الفارسية . ولا يخفى ان المملكة الكلدانية ، او البابلية المستحدَثة ، كانت قد سقطت امام هجمات سيروس سنة ٥٣٨ قبل المسيح ، فاستولى هذا على ممتلكات تلك الامبراطورية الفسيحة . على انه اتبع سياسة الرفق واللين مع الملوك والامراء الوطنيين ، وهي تلك السياسة التي اتبعها مع اليهود ، ففكّ اسارهم وسمح لهم بالعودة الى بلادهم وتجديد بناء اورشليم . ونحن نعرف انه ، على عهد ملوك الفرس الأوّل ، كانت المدن الفنيقية لا تزال تحت حكم ملوكها الوطنيين ، يدفعون الجزية للملك الاعظم ، ولكنه لا يتدخل في شؤونهم الداخلية . وكان لهم مجلس اعلى يُعقد مرة في السنة في مدينة طرابلس ، فيجتمع فيه ممثلو المدن فيخوضون في الامور العامة التي تهمّ البلاد الفنيقية بجملها .

ولقد كانت المنافسة شديدة بين تلك المدن ، ولاسيما بين تير (صور)

---

(1) U. Wilcken, *Alexandre le Grand*, Leipzig, 1931 ; trad. française, Paris, Payot, 1933.

G. Radet, *Alexandre le Grand*, Paris, L'artisan du livre, 1931.

وصيدون (صيدا) . على ان صيدا لم تلبث ان نالت الاسبقية . فان ملوك الفرس كانوا قد انشأوا ضمن سورها (او على مقربة منها بالارجح) فردوساً [1] بنوا فيه قصراً شامخاً . وقد اكتُشف شيء من آثاره المهمة في عصرنا فدخلت المتحف الوطني اللبناني سنة ١٩٣٠ مع مجموعة فورد . وهي آثار اعمدة متوّجة على الطراز الفارسي تشبه تيجان الاعمدة المعروفة في قصر احشورش في مدينة پرسيپوليس ، او تيجان الاعمدة المكتشفة في سوس والمحفوظة في متحف اللوفر [2].

اما سبب هذا الميل الظاهر من ملوك الفرس الى صيدا فالخدمات المهمة التي قام بها الاسطول الفنيقي في سبيل اولئك الملوك . حتى لقد بلغ نحو الثلاثمائة عدد السفن الفنيقية التي عاونت الملك احشورش في مناجزة الاغريق ، سنة ٤٩٠ ق. م. في الحرب الميدية الاولى.

على ان سلطة ملوك الفرس اخذت تضعف شيئاً فشيئاً منذ اواخر القرن الخامس . فاخذ الفرعونان نِكتانبو وتاكوس يقاومة النير الفارسي في السنوات (٣٧٩ — ٣٥٩) . وكان امراء فنيقية يذوقون الامرّين من المرازبة فثاروا بدورهم على السلطة الفارسية . ولكن لم تأتِ السنة ٣٥١ حتى استقل بالسلطة في بلاد فارس ملك جبري، حازم هو ارتحششتا الثالث اوكوس (٣٥٩—٣٣٣) فامر بقتل الرهائن الذين قدّمهم اليه تنيس ، ملك صيدون ، وكان عددهم مائة . فسار وفد كبير من الصيدونيين ، بلغ خمسمائة شخص ، راجين من ارتحششتا ان يرفق بمدينتهم . فما كان من هذا الا ان امر بقتلهم جميعاً . عند ذاك عرف اهل صيدون ان لم يبقَ امامهم الا الموت ، فاقفلوا مدينتهم واعملوا فيها النار حتى احترقت بمن فيها، وكان عددهم، على قول المؤرخين، ٤٠,٠٠٠ نفس (سنة ٣٥١) .

فاذا انتبهنا لهذه الحوادث، ادركنا كيف رأى الصيدونيون في الاسكندر

---

١) اي روضة . والكلمة يونانية (παράδεισος) مأخوذة عن الفارسية « فَرديس »، وقد ادّت في اللغة العربية الى لفظة « الفردوس » وفي الفرنسوية الى لفظة « paradis »

٢) راجع في ما تقدم ذكره: Diodorus, *Bibliotheca historica*, XVI, 41-45
Cf. Eiselen, *Sidon*, 1907, p. 61 ; Clermont-Ganneau, CRAI, 1920, p. 405 ss.

الكبير ، منقذًا اكبر عندما وصل الى مدينتهم ولم يمرّ على هذه المصية عشرون سنة.

مزاعم الاسكندر وحظه من الظفر

لنقف بالاسكندر المقدوني على حدود البلاد السورية ولنسأله : ١ً بايّ صفة يأتي هذه البلاد ؟ ٢ً ما هي معدّاته ؟

١ً هل يتقدّم الاسكندر بصفة فاتح العالم الشرقي ، وبكلمة اخرى ، هل أمّل الاسكندر ، وهو على ابواب البلاد السورية ، بالوصول الى ما سيصير اليه من فتح العالم ؟ لا ، اذ ليس لنا ما يدلّ على كون هذه الفكرة مرّت ، ولو سريعاً ، في ذهن الاسكندر . انما هو يأتي هذه البلاد ، لا فاتحًا ، بل ثائرًا لالهة اليونان من احشورش وخلفائه . ولو اظهر رغبته في الفتح لاثار نفور المدن اليونانيّة نفسها التي كانت قد انتدبته ، بلسان حلف كورنثية ، لقيادة حملة على بلاد فارس ، مؤلفة من رجال مختلف المناطق اليونانية.

وقد كان والد الاسكندر ، فيلبوس المقدوني ، هو الذي أسّس ذاك الحلف فجمع بدهائه بلاد اليونان كلها حول جيش مقدونية ، في سبيل غاية مقدّسة الا وهي محاربة العدو التقليدي او ملك فارس الاكبر.

٢ً والاسكندر مدين كذلك لوالده فيلبوس باكثر معدّاته وبجيشه خاصة.

كان هذا الجيش مؤلفاً من قسمين : قسم الخيّالة وهم فرسان شرفاء ، شاكو السلاح ، جميلو المظهر ، يتسمون كلهم الى ارفع أسر الدولة ويدعون « اصدقاء الملك ». وقسم المشاة ، وسلاحهم الحراب الطويلة ، وقد تمرّنوا التمرين المتواصل على الحركات المتنوّعة السريعة . اضف الى ذلك ان فنّ التحصين واعمال الحصار كان على تقدم في مقدونية . فاضطلع به رجال الاسكندر ولاسيما القواد المشهورون المدرّبون ومنهم پارمينيون ، قائد الجيوش . ويجب ان ننسب ايضاً الى فيلبوس خطةً حربية كثيرًا ما أدّت الى انتصار الجيوش المقدونية ، وهي الخطة المعروفة « بالجبهة الزوراء » او المنحرفة . وسنتكلم

عنها في معرض كلامنا عن معركة ايسوس.

على ان الاسكندر كان ينقصه عاملان مهمّان من معدّات الحرب هما : الاسطول والمال.

كانت جميع المدن والمرافئ في آسية الصغرى وتيليقية وفنيقية ومصر في يد ملك الفرس . فكان بامكانه ان يسيّر الجيوش والذخائر في تلك المناطق جميعها ، فيهاجم المقدونيين حتى في بلاد اليونان . وكان له اسطول يبلغ ٤٠٠ سفينة يديّر اكثرها رجال من امهر بحّارة العصر من الفنيقيين والقبارصة . اما « الاسطول اليوناني » — اذا صحّ ان نعبّر بهذه اللفظة عن المراكب التي جهّزتها المدن والجزر الداخلة في حلف كورنتية — فكان ينحطّ كثيرًا عن الاسطول الفارسي عددًا وعُددًا. كان عدد مراكبه لا يتجاوز ١٦٠ ، وكان ينقصه الاتحاد ، وقد ينقصه الاخلاص ايضاً . ولهذا كان من الكافي ان تحصل معركة بحرية واحدة للقضاء على اكثر آمال الاسكندر.

ثم هناك المال . وكنوز داريوس الوافرة تمكنه من شراء رجال السياسة ، ومن اثارة الانتقاض على الاسكندر . وقد عرفنا ان ديموستين ، عندما قام ، على اثر وفاة فيلبوس المقدوني سنة ٣٣٦ ، يدعو الى حرية اثينة وكسر النير المقدوني ، كان على اتصال بتلك الفرس الاكبر . وكذلك ، حتى بعد دخول الاسكندر آسية الصغرى ، نرى قائدًا يونانياً اسمه ممنون يخدم الفرس ويهمّ بقود جيش فارسي للهجوم على مقدونية . وحتى بعد معركة ايسوس ، نرى أجيس ، ملك اسبارطه ، يتناول من اميرالية الفرس ، الذهب والمراكب ، فيعدّ العدّة لاحتلال كريت ومحاربة الاسكندر .

اما حالة الاسكندر المالية فكانت بضدّ حالة خصمه . كان مديناً بمائتي وزنة عندما دخل آسية . ولم يكن له ، على ما يقدّر البعض ، الا سبعون وزنة فضة من النقد ، ومؤونة ٣٠ يوماً من الذخائر[1] .

---

١) راجع في ذلك : A. Andréadès, *Les finances de guerre d'Alexandre le Grand*, dans *Annales d'histoire économique et sociale*, I, 1929, p. 321 ss.

خطة الاسكندر

هذا الاسكندر يظهر فقيراً بالمال ، لا اسطول له ، معرَّضاً لهجوم فارسي يعاكس هجومه فيفتّ في عضده . وعليه فقد رأى ، درءاً لهذا الخطر ، ان يقوم بخطّة عجيبة ، فيحتلّ شاطئ البحر المتوسط ، قبل ان يهاجم بلاد الفرس متوغلاً في المناطق الاسيوية . وهكذا فانه يشلّ حركة القرس البحرية ، بل انه يتمكن ، اذا ما احتلّ مرافئ آسية الصغرى وفنيقية ، ان يكسب مراكبها فيحوّل اليه السيادة البحرية . وسنرى ان دخول الاسكندر مدينة صور اظهر دقة هذا الحساب وصواب هذه الخطة ، وقد بذل الفاتح في تحقيقها قوة عزمة ورياطة جأش جديرتين بكل اعجاب . فكان الاسكندر اوفر حظاً في ذلك من نابوليون الذي لم يتمكن من مناجزة انكلترة المتصمة بجزيرتها ، وما كانت خطته في حصرها منفردةً عن الشواطئ الاوربية لتوهنها حتى التسليم . اما المملكة الفارسية فلم تكن ضمن جزيرة بل كان لها الشواطئ على البحر المتوسط ، وكان من الكافي ان يحتل الفاتح هذه الشواطئ ليحاربها ويتوغّل في بلادها . وهو ما قام به الاسكندر .

الزحف على الاناضول وعلى سورية الشمالية

من الغريب في هذا الامر ان الاسطول الفارسي لم يحاول منع مراكب الاسكندر (البالغة ١٦٠ خليّة مع بعض المراكب التجارية) ان تمرّ في الهلسبنطس (بحر مرمره) .

فكان ان الاسكندر وصل في ايار ٣٣٤ ، فنزل على الشاطئ الاسيوي ، ومعه ١٢,٠٠٠ من عساكر المشاة ذوي الحراب الطويلة ، و ١٥٠٠ من فرسان مقدونية ، و ١٥٠٠ من فرسان تسالية . وسرعان ما كسر الجيوش الفارسية المتجمّعة على الكرانيك ، وهو نهر صغير ينحدر من جبل إيدا ويصبّ في بحر مرمره . ثم احتلّ مدينة ميله ، فمدينة هاليكرناس ، وهما مدينتان حصينتان لم يجرؤ غيرهما على مقاومته في شاطئ الاناضول الغربي . واعاد الحرية للمدن

اليونانية (المستعمرات اليونانية) القائمة في تلك الجهات ، وطرد المراكب والجيوش الفارسية حتى قيليقية.

وفي ربيع السنة ٣٣٣ جاز الاسكندر أنسير (انقرة او انكرة الحالية ، عاصمة تركية) وقبادوقية ، آخذًا الطريق الجبلية في ممرات جبل طوروس ، جادًّا في سيره حتى فاجأ المرزُبان ارساميس ، حاكم قيليقية من قبل الفرس . وكذلك كان شأنه مع مرابطي المراكز الفارسية المحافظين على الممرّات الصعبة من الداخلية الى يوزنتي ، اذ هبط عليهم في الليل في شرذمة خفيفة من رجاله فاركنوا الى الفرار . فاسرع الفاتح منحدرًا نحو السهل واحتل مدينة تارس (وهي طرسوس اليوم) قريباً من مرسين.

وفي تارس اخذ الاسكندر يعدّ المعدّات لملاقاة داريوس الثالث في الناحية الشرقية . وكان داريوس قد عرف ان الاسكندر دخل قيليقية ، فصمد موازياً مجرى الفرات في آخر الصيف سنة ٣٣٣ ، في جيوشه الكثيرة ومعدّاته الوافرة. ولم يقف الا في سهل فسيح في محل اسمه سوشوا في شمالي سورية ، على يومين من ممرّ بيلان الحالي . ولم يتمكن العلماء حتى اليوم من تقرير موقع سوشوا المذكور ، على ان الواضح ان هذا المحلّ كان يقع على حدود سهل العمق الفسيح في الشمال الشرقي من انطاكية ، وقد يكون في اول الممرّ الذي كانت تتبعه الطريق التركية القديمة الآخذة من قرق خان الى اصلاحية . وقد كان هذا المحلّ موافقاً للجيوش الفارسيّة الكثيرة العدد ولخيالتهم الوافرة التي ستحاول طبعاً ان تدور بجيش الاسكندر القليل فتلتفّ حوله . فاقام داريوس ينتظر خصمه في ذاك المكان مدة طويلة .

على ان الجيشين لم يلتقيا على هذه الجهة السورية من جبل الامانوس ، اي في سهل العمق ، بل كان تطاحنهما في الجهة الاخرى ، بين الامانوس والبحر ، قرب مدينة صغيرة تدعى إيسوس .

وذلك ان الاسكندر في قدومه من قيليقية كان قد وصل دون مقاومة تذكر الى مدينة إيسوس ، فترك فيها الجرحى والمرضى من عساكره ، وتابع سيره حتى مدينة ميرياندوس (وهي الاسكندرونة الحالية) فخيّم في عسكره ، وقد

هطلت عليهم الامطار الشديدة في اوائل تشرين الثاني فقاسوا بعض المشقّات . ولم يكد الاسكندر يقضي اربع وعشرين ساعة مستريحاً مع جنوده حتى ادركه بعض الفارّين من وجه الفرس فاعلموه ان الجيش الفارسي مخيّم بين الامانوس والبحر في المنطقة نفسها التي جازها مؤخرًا ، وهو قاطع عليه علاقاته مع قيليقية.

وكيف كان ذلك ؟

كنا قد تركنا داريوس ينتظر الاسكندر في سهل العمق . ولكن طال به الانتظار ، فصمّم على ان يطلب خصمه في قيليقية ، فسار الى شرقي الامانوس قاطعاً ممرّ الاسد (ارسلان بوغاز) ، ثم الى الجنوب الغربي مارًّا بابواب الامانوس (طوپراق - كليسي) . وقد وافق مسيره هذا سير الاسكندر من قيليقية على ميرياندوس ، فكان ان الجيشين تعارضا في طريقيهما دون ان يرى احدهما الآخر .

ولما علم داريوس بمرور الاسكندر لحقه منحدرًا حتى الشاطئ فوقف عند نهر هناك يدعى پيناروس ، واسمه اليوم دلي تشاي . وكانت خطته دون شك ان يترك المقدوني يقطع ممرّ بيلان وينحدر وراءه الى ذاك السهل . وهناك تلتفّ حوله جيوش الفرس،وهي تفوق المقدونيين عدداً ، وقد سهل عليها التوسّع والانتشار ، فتحيق به وبمساكره .

على ان الاسكندر افسد هذه الخطة . وقد ادرك ، بلمحة من العبقرية ، ان الجيش الفارسي ، واقعاً بين الجبل والبحر ، يفقد كثيرًا من فوائد عدده الكبير . فانشب المعركة على نهر پيناروس . وهي من المعارك القديمة التي نعرف سيرها معرفة واضحة بفضل ما تركه لنا المعاصرون عن وصفها ، ولنا في ذلك وصفان يتفقان في النقاط المهمّة وهما وصف بطليموس الذي كان بين المحاربين[1]، ووصف كاليستين ، مؤرخ الاسكندر الخاصّ المتعلّق بشخصه ، وبالتالي العارف بدقيق المعلومات ، دون شك[2] .

١) وهو الوصف الذي اورده خاصّةً اريان Arrien, *Anab.*, II, 6-11

٢) وهو الوصف الذي استند اليه پوليب Polybe, XII, 17-22

وقد اسفرت المعركة عن انتصار الجيوش المقدونية انتصاراً باهراً ، بفضل تطبيق خطة « الجبهة المزورة » التي اشرنا اليها ، والتي كان الاسكندر قد اخذها عن ابيه فيلبوس . وهذا كان قد اخذها بدوره عن ريامينُنداس القائد الطيبي . ولقد افادت هذه الخطة الاسكندر في انتصاره في معركة گرانيك ايضاً .

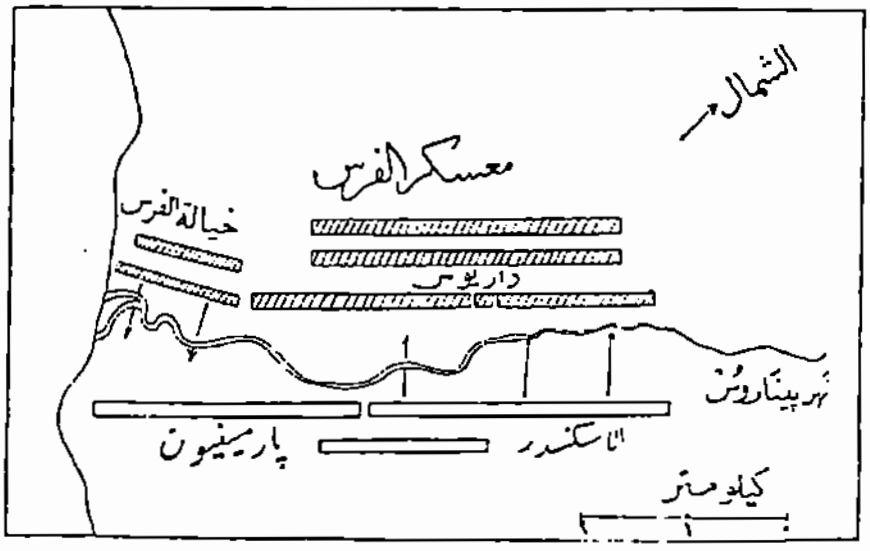

الرسم ١ : معركة إيسوس

اما تفصيل حوادث المعركة فملخصها ان الفرس كانوا يحتلون بجناحهم الايسر اعالي منحدرات الامانوس . وكان في قلبهم جيش من المشاة الاشداء المهرة ، يؤلفه جماعة من مأجورة اليونان والكرداك ويردفهم جمهور كبير . وكان الجناح الايمن الفارسي يتألف خاصة من الخيالة ، وقد كان بامكانهم ان ينتشروا في ذاك السهل حتى البحر . وكان داريوس نفسه قائماً على عجلة حربية في قلب جيشه وراء العسكر المأجور من اليونان .

اما في الجيش المقدوني فخصّ الاسكندر بنفسه الجناح الايمن او جانح الخيالة . وعهد في قيادة الجناح الايسر الى القائد پارمينيون الخبير ، وامره ان يحتفظ بتركزه مهما كلف الامر فلا يدع الفرس يتقدّمون على شاطئ البحر .

وكان الاسكندر في مساء اليوم السابق ، رغبةً في استطار مراحم الآلهة البحرية على هذه النقطة من مجال المعركة ، قد ضحّى للاله فوسيذون بركبة ذات اربعة افراس فاطلقها في البحر . وكان ذوو الحراب الطويلة يحفظون قلب الجيش.

ولم يكد الاسكندر يرتّب صفوفه حتى هجم متقدماً فرسانه الشرفاء على جناح العدوّ الايسر اي من جهة الجبل . فتراجع الفرس لدى وقع هذه الخيّالة الثقيلة . وكان من تأثير هذا الهجوم المفاجئ ان حصل بعض الاضطراب بين ذوي الحراب في قلب الجيش المقدوني ، فاغتنم اعداؤهم الفرصة ، وهم من مأجوري اليونان ، وهجموا متقدّمين . فكانت معركة هائلة بين هؤلاء المشاة وكلهم من ذوي الحنكة والتمرن في الحروب . على ان الاسكندر كان قد اتمّ حركة هجومه الدورية ، ووصل الى قلب جيش العدوّ بسرعة لم تكن منتظرة . وعندما شاهد داريوس هذه الحركة تملكه الذعر فأفقده رباطة الجأش ، فادار عجلته نحو الشمال واركن الى الفرار . وقد دوّن هذا الحادث المهمّ المؤرخ كليتارك ، جامع اقدم اساطير الاسكندر في نحو السنة ٣١٠ ، فجعله بعض الشيء حتى اصبح من موضوعات الفن ، فمثلته قطعة من الفسيفساء مدعوة « بفسيفساء الاسكندر » ومكتشفة في « الكازا ديل فونو » في پومپي (اطلب الرسم ٢) وهي قد تمثل لوحة تصويرية لفيلوكسين ترتقي الى السنة ٣١٨ . وكان من نتائج هرب داريوس ان جيشه تضعضع ، فانتهت المعركة بين كوكبتي الفرسان على شاطئ البحر . ولم يلبث الجيش الفارسي ان لاذ بالفرار باجمعه فاخذ جيش الاسكندر يتعقّبه بنشاط غريب ، على انه لم يتمكن من اللحاق بداريوس ، فعاد مساء الى موقع المعركة.

وكان بين الاسلاب سرادق الملك الاكبر وفيه امه وامرأته واولاده الثلاثة . فعاملهم الاسكندر باحترام.

وان جاز لنا الآن ان نحاول نقد خطة الاسكندر في معركة ايسوس — وذلك بفضل المبادئ الاولية في فنّ الخطط الحربية التي عنيها مؤرّخو نابوليون ودارسو مواقع الحرب الكبرى — فاول ما يطرق فكرنا السؤال التالي: أَلَمْ

الرسم ٢ : مشهد من الفسيفساء بمكتبة في بومبي

ارمد ٣

قطعة نقود تمثل الاسكندر الكبير

يبدو الفتى في الدرهم ضخم الأنف ذو رأسه حادة قبل رمزًا الى القائد مدير بروس الفتى .

وفي الغالب لأنه حسنة اسد الدولة الى انه من ابناء هرقل

يكن من التهوّر ان يهجم الاسكندر بنفسه في مقدّمة « اصدقائه » من الفرسان الشرفاء ؟ وقد اصابه جرح في معركة ايسوس، وكذلك كاد يُقضى عليه في معركة گرانيك اذ هجم المرزُبان سبيتريدات طاعناً اياه في ظهره ، لو لم يبادره المقدوني كليتوس فيقطع يد المرزبان بضربة سيف. او ليس من واجب القائد ان يراقب تطور المعركة عن بُعدٍ قليل، فيصدر الاوامر الموافقة للتقلّبات المتنوعة ؟ من الحق ان هذه الملاحظات توافق خطط الحرب العصرية . اما في العصر القديم فكان الامر بخلاف ذلك ، والقدماء يجهلون استخدام العسكر الاحتياطي ، فكانوا يرمون بجيوشهم كلها دفعةً واحدة . وهكذا لم يكن للقائد ان يراقب حركات الجيش وسير المعركة. واذا انتبهنا الى ما تتصف به خطة « الجبهة الزوراء » ، رأينا كثيرًا من المبرّرات لوجود الاسكندر وسط المعركة ، تحمياً لجنوده واهتماماً بالاسراع بالضربة الحاسمة.

الزحف على فنيقية — حصار صور

لم يختص القائد الشابّ بدقة النظر وسط المعركة فحسب ، بل كان له تلك النظرات البعيدة التي يتصف بها السياسي المحنّك ، وتلك العزيمة المتابعة التي تميز ارباب الممالك وسادة الدول . وقد اظهر هذه الصفات بعد انتصار ايسوس ، اذ لم يدع نشوة الفوز تشله فيحمله الهوس على اللحاق بملك الفرس والتوغل في بلاده ، قبل ان يتمكن من تنظيم جيوشه الشاردة . أوَ لم يكن من الممكن ان يغرّ الفوز قائدًا ابن ثلاث وعشرين سنة فيدفعه الى مثل هذا التهوّر ؟ على ان الاسكندر لم يغترّ ولم يملكه الهوس . بل فكر في مقدّراته بروية وقاس اليها مقدّرات العدوّ ، فقرّر اتباع الخطة الآتية : قبل ان يتوغل في داخلية بلاد الفرس ، عليه ان يحتلّ جميع ممتلكاتهم على البحر المتوسط من ابيدوس ، قرب الدردنيل ، حتى مصر.

فكان ان الفاتح ، بعد ان قطع ممرّ بيلان ، اكتفى بارسال پارمينيون الى دمشق ؛ فوضع هذا يده على كنوز داريوس . فتخلص الاسكندر من مشاكله المالية . وتابع سيره نحو مصر . وكانت المدن الفنيقية تخضع له الواحدة بعد

الاخرى من ارادوس (ارواد) الى جبيل الى صيدون حتى وصل امام صور.

وهنا اراد الاسكندر ان يضحّي في جزيرة صور . ولقد كان مخلصاً في الاعتقاد باصله الالهي . يؤمن بانه ينتسب ، بابيه فيلبوس ، الى هرقل ، وبامه اولمپياس ابنة ملك المولوسيين ، الى اخيل . وان ما لدينا من رسوم للاسكندر — سواء اكانت نقوشاً منحوتة كما في ناروس الاسكندر المكتشف في صيدا او مصكوكة في قطع النقود — تزين كلها رأسه برموز الهية ثلاثة : ١ً قرنا آمون اشارةً الى انه ابن زَفس، ٢ً جلد الاسد دلالةً على انه ابن هرقل، ٣ً جلد الفيل رمزًا الى اتحاده بديونيزوس الهندي . على هذا الاعتقاد، طلب الاسكندر من اهل صور، وقد وصل امام جزيرتهم، ان يفتحوا له الابواب لكي يضحّي للاله هرقل الصوري في الهيكل الشهير الذي بناه الفنيقيون وسط الامواج . وان لم يكن بين البطل اليوناني وملكارت ، اله الصوريين المكرَّم قديماً ، الا شبه اسطوري او اتفاق في بعض الصفات ؛ فان الموافقة بين ملكارت وهرقل اليونان ترقى الى عصر قديم اذ نراها ظاهرة في آثار هيرودوت في القرن الخامس قبل المسيح . وهذا ما يشرح لنا مزاعم الاسكندر ، سليل هرقل ، ورغبته في التضحية في هيكل ملكارت.

على ان الصوريين رفضوا تلبية هذه الرغبة . وهم لو سمحوا لهذا الغريب أن يضحّي في هيكلهم لاعترفوا بـه ملكاً عليهم . لانه ، تبعاً للعقائد السامية ، كانت التضحية من حقّ الملك وحده. فاعلن الصوريون انهم لن يسمحوا بدخول جزيرتهم لا لليونان ولا للمقدونيين . اوَ لم يكونوا قد قاوموا في مـا مضى فاتحَين اشوريَين شهيرَين هما سلمنصر الثاني وسرجون عندما اقاما الحصار على صور دون نتيجة فرجعا عنها خاسرين ؟

اما الاسكندر فلم يكن بامكانه قبول هذا الرفض . لانه ، فضلاً عما فيه من الاهانة ، كان يحول بينه وبين تنفيذ خطته ، ولا يمكنه ان يترك الحرية على شاطئ المتوسط لاهمّ مركز فنيقي بامكانه ان يعيد تجهيز الاسطول الفارسي ويستدعي اليه مراكب قرطاجة التي لم يكن الاسكندر ليجهل قوتها وغناها بالمعدّات . فقرّر ان يقيم الحصار على صور مهما كلّفه الامر.

وقد كلّفه سبعة اشهر من الجهود المتواصلة.

تظهر مدينة صور ، مع ارادوس (ارواد) ، مثالاً للمدينة الفنيقية . جزيرة (وقد تكون احياناً شبه جزيرة) ، ومدينة اخرى تقابلها في البرّ قريبة منها ، يسكنها الشعب الواحد ويحصّنها ويحميها بواسطة البحارة المعروفين بالجرأة والشجاعة . وهكذا كان للفنيقيّين جزيرة ارادوس (ارواد) ومقابلتها على الشاطئ مدينة انترادوس (طرطوس) ؛ وجزيرة تير (صور) التي بنى اكثرها حيرام ، معاصر سليمان الحكيم ، ومقابلتها پاليتير التي لا يُعرف موقعها تماماً في عصرنا . ولقد كانت جزيرة تير منذ القرن الثامن ق. م. عاصمة لتجارة البحر المتوسط ، نتحقق ذلك حتى في نبوة حزقيال عن خرابها اذ يرسم ذاك المشهد الرائع لترفها ورخائها . وكانت ايضاً مدينة حصينة وثيقة الاركان ، يفصلها عن الشاطئ ساعد من البحر يبلغ ٦٠٠ الى ٧٠٠ متر ، وتحيط بها اسوار منيعة تبلغ ٤٥ متراً ارتفاعاً ، وتدور حول المدينة على طول نحو ٤ كيلومترات[1] . وكان للجزيرة مرفآن : «المرفأ الصيدوني» في الشمال الشرقي ، و«المرفأ المصري» في الجنوب الشرقي يتصلان احدهما بالآخر بواسطة نهر يقطع الجزيرة . وكان اسطول المدينة — او على الارجح قسم من هذا الاسطول — يحتلّ المرفأين فيقوم بحركاته بكلّ السهولة والحرية.

كان على الاسكندر ان يزحف على المدينة من البرّ . فاخذ منذ شهر كانون الثاني سنة ٣٣٢ بانشاء ممرّ في البحر يصل بين الشاطئ والجزيرة . وهو عمل عظيم كلّفه جهداً كبيراً ومعدّات وافرة وكميّات كثيرة من التراب والحجارة ليقوم هذا الجسر البالغ ستين متراً عرضاً . وكان من اول ما قام به الاسكندر ان خرّب مدينة پاليتير ، القائمة على الشاطئ مقابلة تير ، ورمى باثارها في البحر طامراً قسماً منه . وكان كلما تقدّم العمل في بناء الجسر ازداد عمق البحر فتضاعفت الصعوبات ، فضلاً عن ان المراكب الصورية كانت تهاجم العملة من

---

١) اطلب في ذلك : Kromayer-Veith, *Schlachten Atlas*, Griech. Abt., Blatt 7, 1929 : cf. Chaussard, Arrien, *L'expédition d'Alexandre*, Atlas, pl. V, p. 67 ss.

وقت الى آخر ، فتعيقهم . وكأن العناصر الطبيعية ارادت معاونة صور فهبّ اعصار هائل من الجنوب الغربي ، ففصل الجسر قسمين . فاعاد الاسكندر بناءه ، بعد ان امر بغرز الاساطين القوية الضخمة في الماء من عن الجانبين لتحفظ تلك الكميات العظيمة من الاخشاب والحجارة الملقاة وسطها . عند ذاك اتى دور المهندسين الصوريين ، وقد طالما اختبروا اعمال الملاحة والمنشآت البحرية ، فقاموا بواجبهم خير قيام على نحو ما وصف الاميرال جورين دي لاگرافيير في سرده الحيّ «للمأساة المقدونية» ، قال مخاطباً المحاصرين: «آه ! يا جنود مقدونية ، اتهاجمون ابناء البحر ؟ سترون اذاً — كما رأينا نحن ايضاً في سباستوپول — كم للبحري من حيل متنوّعة في جرابه . »[1] وسرعان ما انزل مهندسو صور الى البحر حرّاقة مشحونة بانواع الوقود ، ومثقلة من مؤخرها كي يرتفع مقدّمها عالياً . ولم يكن هذا المقدّم الا محترَقاً واسعاً يعلوه صاريان عُلقت بهما المراجل الملأى بالمواد السريعة الالتهاب . سار المركب الحرّاق تدفعه ريح موافقة ، ويقوده القذّافون في مركبين موازيين . فوصل الى طرف الجسر مما يلي الجزيرة ، وكان الاسكندر قد بنى فيه برجين وغطاهما بجلود حيوانات مقلوبة وقريبة العهد بالسلخ وهي من افضل ما تقاوم به النيران حتى انها تصمد للنار الحرّاقات مدة يوم كامل . ولكن اين مقاومتها من قوّة تلك النار الهائلة الملتهبة فجأة في مراجل المركب الحرّاق ، وقد انقلبت على البرجين من اعالي الصاريين ؟ فلم يلبث ان احاط اللهيب بالبرجين وبمقدّمة الجسر ، بينما كان الاسطول الصوري ، وقد خرج من مرفأيه ، يمطر الممرّ بالسهام المتتابعة ، فيمنع الجيش المقدوني من الوصول الى الطرف ، وتتقدم مراكبه من الجسر فتخرب المعدّات وتدك الاركان الواقية التي شيدها المقدونيون . بعد هذا الفشل تأكد الاسكندر ان من المستحيل اخذ مدينة بحرية او جزيرة الا بمساعدة اسطول ، وادرك انه يجب ان يغيّر خطة هجومه على صور من البرّ الى البحر .

---

(1) Jurien de la Gravière, *Le Drame Macédonien*, p. 103

وكان من حسن حظه ان عمارة المدن الفنيقية الشمالية تركت الاسطول الفارسي في ذاك الوقت ، وقد علمت ان ارباب مدنها اعترفوا بسلطة الاسكندر، فاتت مقتربة من الشاطئ . فما كان من الاسكندر الا ان اسرع الى صيدون، فجمع ٨٠ مركباً فنيقياً ، و ١٢٠ مركباً من ممتلكات امراء قبرص كانت آتية من رودس وليقية[1] . ثم سار في هذا الاسطول الى عرض جزيرة صور ، فهاجم مراكبها بشدة . ولم يمكن هذه المراكب ان تقاوم طويلاً فلجأت الى المرفأين. وهنا بدأ الحصار البحري ، بينما كان العملة يشتغلون بناء الجسر ، وقد خلا لهم الجوّ بحصر المراكب الصورية . وكان على الاسطول القبرصي ان يحصر المرفأ الصيدوني ، وعلى المراكب الفنيقية ان تقوم حاجزاً امام المرفأ المصري.

ولا يسعنا المجال لسرد ما حصل من الحوادث والمناوشات والخطط مما افاض به المؤرخون في ذكر هذا الحصار الشهير . وعندما انتهت الاعمال في بناء الجسر ، وامر الاسكندر بالهجوم ، قاومته المدينة بنهاية ما يمكن من الشدة والصبر والفن الحربي . وقد كان من اعظم مخترعاتهم في المقاومة ومن اشدّها وطأة على الجيش المقدوني اختراعهم النار الملتهب الذي كانت تثيره في الفضاء على المهاجمين تروس النحاس وقد أحميت في النار حتى درجة البياض . فكان هذا النار الملتهب المتناثر رملاً وهاجاً لا يكاد يعلق بالجسم من خلل فروج الدرع حتى ينفذ في اللحم الى العظام ، وليس للجندي واسطة في مقاومته او اخراجه . فكان من يُصاب به لا يمكنه ، من قوة الالم ، الا ان يطرح سلاحه ويشقّ ثيابه ، فيظهر اعزل حاسراً امام العدوّ ولا يبالي.

على ان هذه المقاومة الشديدة كان لها نهاية . فكان الهجوم الحاسم من جهة الجنوب بواسطة مراكب تحمل الآلات الهدّامة فتضرب الاسوار ، وتليها مراكب تحمل الجنود ، بينما كان الهجوم موجّهاً كذلك نحو المرفأين . وهنا تبدأ المجزرة فيُقتل ٦ آلاف من الصوريين على الاسوار ، ويؤسر الفان فيأمر الاسكندر بصلبهم على طول الشاطئ . ثم يطلق جنوده على المدينة فيأسرون

(١ Chaussard, Arrien, *Expédition d'Alexandre*, Atlas, p. 71

ثلاثين الفاً من سكانها ، وطنين واجلب ، فيبيعونهم عبيداً . فيخلو الجو للاسكندر ، فيضحّي في هيكل ملكارت ، ويعفو عن جميع من لجأ اليه اوان النهب والتخريب . ثم يحتفل بانتصاره باقامة الالعاب واساليب اللهو . ويتابع سيره ، على الشاطئ ، نحو البلاد المصرية .

وكان عليه ان يعيد تجهيز آلات الحصار امام غزّة ايضاً[1] ، وهي مدينة حصينة كان يحكمها خصيٌّ اسمه باتيس ، فلم يشأ ان يخون اميره ، ملك الفرس الاكبر ، فيسلّم المدينة للمقدوني . اما حامية المدينة فكان فيها كثير من النبطيين[2] اي سكان منطقة بترا (بين مدينة بترا او صُلع او البطراء وجنوبي دمشق) . ويظهر من اقوال المؤرّخين ان الاسكندر ، بينما كان يحاصر صور ، توقع هجوماً على جيشه من قبل النبطيين (وقد يكون هؤلاء من محالفي صور سياسياً وتجارياً) ففاجأهم بغزوة سريعة الى داخلية البلاد هاجم فيها عرب انتيلبنان ، على قول بلوطرخوس[3] ، ورجع بعد احد عشر يوماً .

على ان غزة لم تكن لتقوى على ما لم تقوَ عليه صور . فدخلها الاسكندر على الرغم من المقاومة الشديدة ، واسر حاكمها باتيس فربطه حيّاً الى عجلته وجرّه حول المدينة ، كما فعل اخيل في سالف الحقب بجثة هكتور اذ جرّها حول اسوار اليون .

. . .

ولم يكن للاسكندر ان يعود الى ارض فنيقية الا بعد ان يحتلّ مصر وينظّمها . فكان له ما اراد . وكان من آثاره المهمة هناك ان بنى الاسكندرية في اواخر السنة ٣٣٢ . وفي ربيع ٣٣١ ، عاد الى صور ، فاقام فيها مدة قصيرة . ثم صعد نحو الفرات وسهول العراق حيث كانت تنتظره موقعة أربل فتفتح امامه ابواب مملكة فارس . وقد يكون زار اورشليم في سيره نحو الفرات .

---

١) اطلب Radet, *op. cit.* p. 103-105

٢) Wilcken, *op. cit.*, p. 119

٣) واطلب في ما تقدم : Chaussard, Arrien, — Plutarque, *Alexandre*, 24 *op. cit.*, p. 71 — Kahrsted, *Syrische Territorien...*, 1926, p. 88

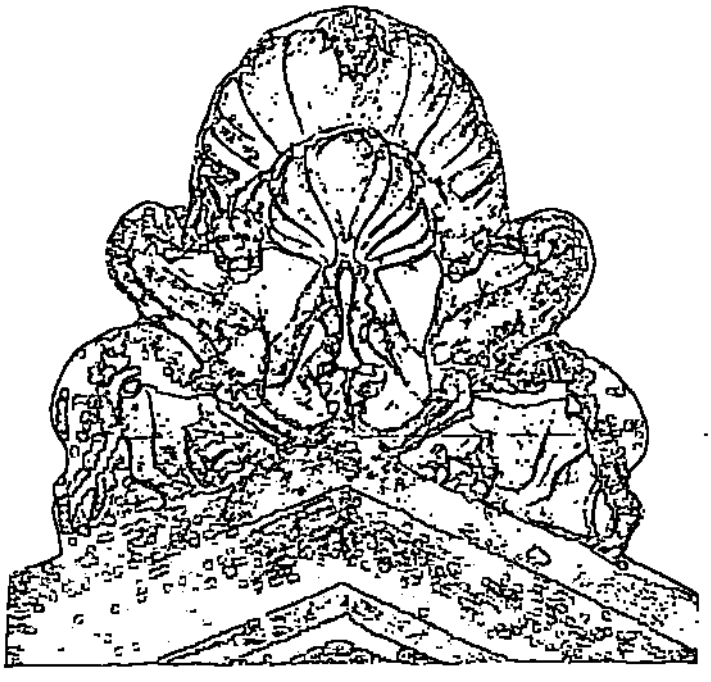

الرسم ٥ : منظر قمة الغطاء من الجهة الجنوبية

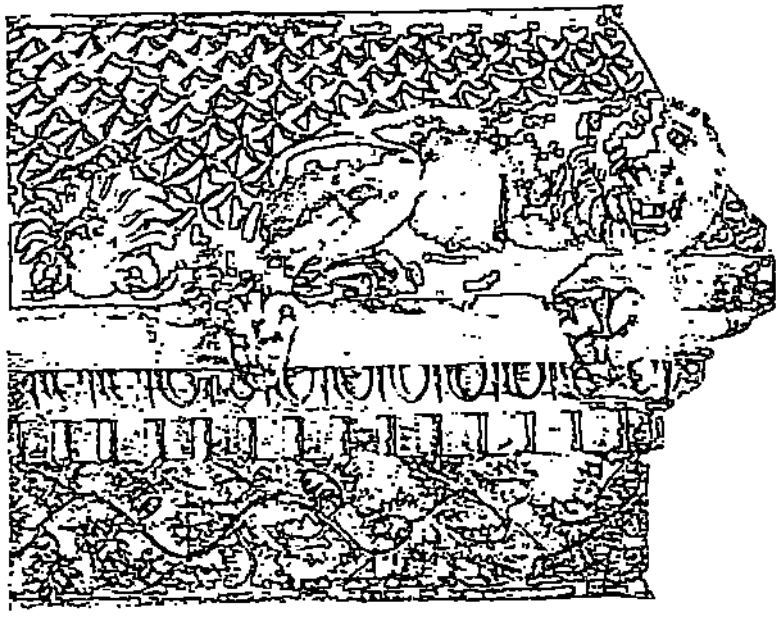

الرسم ٦ : منظر احدى زوايا الغطاء ، وعليها شخص أسد

الرسم ٦ : منظر تفاصيل لتابوت الاسكندر من اكتشف في صيدا

نتائج فتوح الاسكندر

في ما خصّ الشرق الادنى ، ولاسيما سورية وفنيقية

من السهل ذكر هذه النتائج باختصار ، بل من الممكن تلخيصها بتعبير واحد: وهو ان فتوح الاسكندر ادّت الى بسط النفوذ اليوناني على الشرق ، او الى « يَوْنَنة » الشرق ، ان صحّ التعبير.

ولا يُفهَم من هذا ان الفاتح نجح في جميع مراميه ، او ان مشاريعه تحققت بجملها. ونحن اذا فحصنا مراميه السياسية مثلًا نرى ان حلمه في تأسيس مملكة عالمية تلاشى بوفاته. وهو وان ترك دولًا يونانية في مصر وسورية : البطالسة والسلوقيين ، فلم يكن افراد هذه الدول من نسل الاسكندر . فضلًا عن كونهم لم يملكوا الا جزءًا من الامبراطورية الفسيحة التي اخضعها الفاتح الكبير.

ثم ان مشروعه في مزج المدنية اليونانية بالمدنية الآرية بواسطة الزواج بين الاغريق والفرس لم يتحقق كذلك . فان الطوارئ المقدونية تلاشت شيئاً فشيئاً وسط السكان الوطنيين دون ان يتأثر هؤلاء بالعادات والاخلاق اليونانية.

على انه مثّل في شخصه ، وترك للعصور الآتية مثال « الملك اليوناني » : حاكم مطلق ، وقائد جيش ، ومدير اعلى لجميع افراد الرعية ، يجالس العلماء ، ويستصحب رجال الدولة. وهذا المثال العالي للملك قريب جدًّا من فكرة الملكية المعبّر عنها « بالمستبدّ المستنير . »

ويجدر بنا الآن ان نسأل هل استفاد الاسكندر من الشرق ، وخاصة من بلاد فارس ، نظريته في الملكية ؟ وهل أسس ، في سبيله هو ، عبادة الملك ، كما نراها في الملكيات اليونانية ؟

هو سؤال ادّى الى كثير من المشاحنات بين المؤلفين دارسي شخصية الفاتح الكبير . فكان من المجيبين بالايجاب سهنابيل ، والآنسة تيلر . ومن معاكسيهم برَف ، وتَرن ، وفَرنل ، واخيرًا ولكن . وقد يكون الارجح ان الاسكندر اتخذ مظاهر الملكية الفارسيّة اكثر من اهتمامه بمبادئها الجوهرية الاساسية . وعدا ذلك فان ملوك الفرس لم يكونوا معتبَرين من الالهة . ولعلّ

الاصح ان نعتبر الاسكندر ملكاً يونانياً ليس غير في نظر المقدونيين ، على انه كان يتطلب من رعاياه الشرقيين امارات الاكرام والاحترام جميعها التي كانوا يولونها ملوك الفرس. وهو ، وان جرّب ان يدفع جنوده المقدونيين الى تكريمه باشارة العبادة المدعوّة « پروكسينيز » ، فلم ينجح في تجربته ، فضلاً عن ان هذه الاشارة نفسها ليست اشارة دينية . اما كون الاسكندر ظهر موضوعاً لعبادة دينية ، فانما كان ذلك بعد وفاته ومن قِبَل خلفائه وحدهم .

وهناك نتائج سياسية لحكم الاسكندر لا يهمّ هذه البلاد منها الا واحدة هي تأسيس دولة السلوقيين.

اما النتائج الاقتصادية لتلك الفتوح في الشرقين الادنى والاقصى فكانت اعمق تأثيراً في سورية وفنيقية . هناك بلاد جديدة واسعة فُتحت للتجارة الدولية ، وهناك تقدم عظيم في طرق التجارة . نتج هذا من ان الاسكندر ملك قسماً كبيراً من كنوز ملوك الفرس ، فاكثر النقود ودفع جميع العالم الشرقي الى استعمالها في المعاملات . فلم يلبث النقد الذهبي والفضي ان عمل على ملاشاة الطريقة القديمة في التجارة ، اي تبادل البضاعات باعيانها . ومهّد السبيل في ذلك الى تأسيس المصارف المهمة سهّلا اعمالها ، وبالتالي اساليب التجارة الواسعة ، وتقدّم الصناعة . وعندما تستعيد مدينة صور حياتها ، بعد ذاك العقاب الهائل الذي انزله بها الاسكندر ، فتحتلّ مركزها السابق في التجارة ، فانها تستفيد الفائدة الجمة من هذا التحسين الاقتصادي حتى ان نقودها ذات الاربعة الدراهم المزيّنة بالصور الجميلة لملوك اللاجيديين والسلوقيين ، والمشهورة بصحتها ودقة وزنها ، تكوّن المثال النقدي الاعلى في السوق التجارية. فيتخذها المتعاقدون وحدةً في معاملاتهم ، وتصرّح الصكوك ، حتى في انحاء المملكة الفارسية وفي القرن الثاني بعد المسيح ، ان الدفع يكون « بالنقد الصوري الصحيح . »[1]

---

(١) اطلب في هذا البحث M. J. Rostovzeff a. C. Bradford Welles, *A Parchment Contract of loan from Dura-Europos*.., Yale class. Studies, II, p. 6, li. 6; p. 60 ss. حيث يكتفي المؤلفان بدرس صنة الفضة ذات الاربعة الدراهم على عهد ترايانوس فحسب.

الرسم ٨ : مشهد من الجانب الغربي للناووس يمثل الاسكندر في صيد الوحوش الضارية ، وقد هجم ليخلص رفيقه من الاسد

الرسم ٢ : مشهد من الجانب الشرقي للفاووس يمثل الاسكندر في معركة إيسوس ، وقد رفع حواده على فارس من الاعداء وداس فارساً آخر

واهم من هذه النتائج الاقتصادية كانت النتائج العقلية والفنية التي سيتيها فتوح الاسكندر ، تلميذ ارسطو ، المشبع بحب التفتيش والاكتشاف . فتقدم العلم اليوناني خطوات واسعة ولاسيما في ما خص الجغرافية . وكذلك القول عن الفلسفة اليونانية ، فانها استفادت ، بفضل هذه الفتوحات ، آراء جديدة في العلاقات الدولية والحق المشترك بين جميع الشعوب ، بل انها اغتنت بفكرة مساواة الشعوب في الاصل الجوهري ، لا فرق في ذلك بين اليونان والبرابرة .

تقدم لنا القول ان الاسكندر لم يتوفق في ايجاد عنصر متولد من الفرس واليونان ، وكذلك لم يتوفق الى تأسيس مدنية مختلطة تمتزج فيها ثقافة الشرق القديم وثقافة اليونان المدرسية .

على انه كان له الفضل الاكبر بنشر الثقافة اليونانية حتى اقاصي العالم المعروف في زمانه .

وكان لفنيقية ان تستفيد من ازدهار هذه الثقافة في محيط الفن خاصة . فعرفت صيدون كثيرًا من الملوك المشغفين باليونانية ، وذاقت كذلك جمال الفن الاغريقي . وقد يكون ماوكها استدعوا الفنانين اليونانيين فنحتوا تلك النواويس الجميلة المكتشفة في صيدا والمحفوظة اليوم في متحف استامبول . واشهرها الناووس المعروف « بناووس الاسكندر » يمثل عراك المقدونيين والفرس ، وبين رجال الحرب صورة للاسكندر تستوحي ميزاتها من الصور الرسمية التي امر الفاتح اشهر مصوّري عصره فرسموها له . وقد يكون من المفيد ان نشير ، في مختلف انحاء فلسطين وفنيقية وسورية ، الى آثار هذا الفن الاغريقي ، وهي عديدة مهمة يراها الباحث منتشرة من بترا الى الاسكندرونة . حتى ان الديانات الشرقية نفسها ، وهي معروفة بمحافظتها على تقاليدها وبعدها عن كل تأثير خارجي ، قد تأثرت بروعة هذا الفن . فارتدت آلهة الشرق القميص العسكري اليوناني والرداء الاغريقي ، قبل ان تحاول بدورها التأثير في بلاد الغرب . بل ان الشرق الاقصى ، على بعده ، لم يخلُ من التأثر بالامثلة اليونانية في الفن . فهناك تمثال لبوذا يرقى الى القرن الخامس او السادس

للمسيح ، يظهر لابساً البردة الرومانية التي كان يرتديها الخطباء[1] . وهناك ايضاً في هَضَّة من بلاد الافغان ، اكتشف احد المنقّبين الفرنسويين في هيكل بوذي ، دمية تمثل احد الاشخاص المؤلهة بوجهٍ يشبه في قسماته وجه الاسكندر كما نراه في صوره العديدة[2] .

وهكذا يكون ذاك الفاتح العظيم قد تجاوز حياة امبراطوريته الفسيحة ، في فتوحاته العقلية والفنّية .

---

١) Foucher, *Conférences au Musée Guimet*, 1912, p. 270 et pl. XII

٢) Foucher, *Monuments Piot*, XXX, 1929, pl. IX, p. 101-110